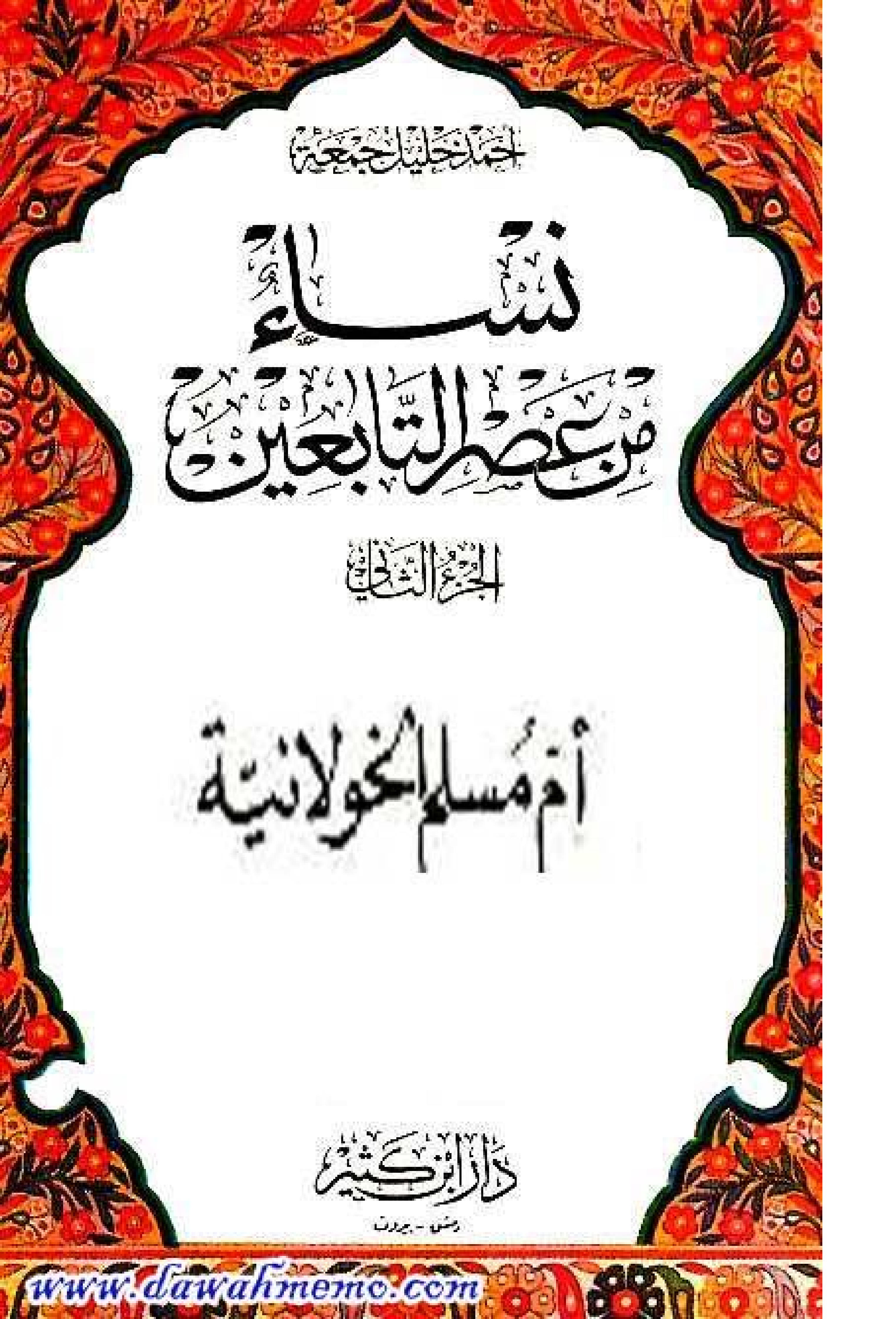

أحمد خليل جمعة
نساء من عصر التابعين
الجزء الثاني
أم مسلم الخولانية
دار ابن كثير
دمشق - بيروت
www.dawahmemo.com

(١٠)

أمّ مُسلم الخولانيّة

* تابعية ، عابدة ، زاهدة ، تجيد الغَزْل ، مطيعة لزوجها .

أُمُّ مُسْلِم الخَوْلَانيَّة

يا أمّ مُسْلِم :

* يا أمّ مسلم سوي رحْلَكِ ، فإنّه ليس على جسْرِ جهنم مَعْبر .

بمثل هذا كان أبو مسلم الخولاني يخاطبُ زوجه أمّ مسلم كلّما سنحت له فرصة لذلك .

* وعلى مثل هذا المستوى من حياة العبادة والزّهد ، وطلب مرضاة الله عزّ وجلّ ؛ كانت بدايةُ أم مسلم الخولانية مع زوجها ، فمن أشرقتْ بدايته ، أشرقتْ نهايته ، وسيرة أمّ مسلم إشراقٌ في إشراق .

* وأمُّ مسلم الخولانية(١) ـ رحمها الله ـ امرأةٌ من كبار نساء التّابعين ، وأمّ مسلم نفسها تابعيةٌ جليلةُ القَدْر ، رفيعة الشّأن ، على جانب عظيمٍ من العلم والمعرفة ، والزّهد والتّقى .

* وزوجها أبو مسلم الخولاني الدّاراني ، سيّد التّابعين ، وزاهد العصر ـ كما قال الذّهبي ـ واسمه عبد الله بن ثوب(٢) ، أسلم في عهد

---

(١) تاريخ دمشق (ص ٥٥٠) .

(٢) هو أحد الزُّهادِ الثّمانية المشهورين بالزّهد وهم : الرّبيع بن خُثَيم ، عامر بن عبد الله التّميمي ، أُويس بن عامر القرني ، هرم بن حيان ، مسروق بن الأجدع ، الأسود بن يزيد ، الحسن البصريّ ، وأبو مسلم الخولانيّ .

النّبي ﷺ ولم يَلْقَه ، ودخل المدينة المنورة في خلافة سيدنا أبي بكر الصّدّيق ـ رضوان الله عليه ـ .

* وحدَّث أبو مسلم ـ رحمه الله ـ عن عمر ، ومعاذ بن جبل ، وأبي ذرّ الغِفَاري ، وأبي عبيدة ، وعبادة بن الصامت ـ رضي الله تعالى عنهم ـ .

* وروى عنه أكابر تابعي عصره ، وكان حكيم الأمّة ، وقد آتاه الله عزّ وجلّ من لدنه فضلاً وعلماً ، وكان من كبار أولياء الله المتقين ، وقدمَ الشّام فسَكَن داريّا[1] .

* وأمّ مسلم الخولانية ـ رحمها الله ـ لا تُعرف إلا بهذه الكنية ، وقد استمدت شهرتها من زوجها أبي مسلم الخولاني ـ رحمه الله ـ ، بالإضافةِ إلى ما كانت عليه من العبادة والصّلاح ، فقد عمّرتْ أوقاتها بأنواعِ الطّاعة ، ولا زمتْ ذِكْرَ الله قياماً وقعوداً وبالعشيّ والإبكار ، فاقتعدت منزلةً عالية بين النّساء التّابعيات ، وكُتبَ لها الذّكْرُ الحسنُ في هذه الدُّنيا ، وكانت قدوة حسنة لمن أراد الاقتداء .

* * *

(١) « داريا » : القرية المعروفة بجنب دمشق على دون ثلاثة أميال منها ـ وهي اليوم داخل دمشق ـ وكان فضلاء السّلف يسكنونها ، وممن سكنها من الصّحابة سيدنا بلال مؤذن رسول الله ﷺ . وفي داريا قبران مشهوران لسيدين جليلين وهما : أبو مسلم الخولاني ، وأبو سليمان الداراني ـ رضي الله عنهما ـ (تهذيب الأسماء واللغات : ١٠٨/٣) .

مِنْ أَيْنَ لَكِ هَذا ؟ :

* لم تكن أمّ مسـلم الخولانية ـ رحمها الله ـ من النّسـاء اللواتي ينقطعن انقطاعاً كاملاً إلى واجباتهن الدِّينية ، وتترك واجباتها الدّنيويّة ، ولكنّها كانتِ امرأةً صَناعاً ، تعمل بيديها ـ والعمل عبادة ـ فقد كانت تجيد الغَزْلَ وما يلحق به من أمور ، وبهذا كانت من العابدات المجتهدات في العبادة والعمل من كسب ذاتِ اليد .

* وكانت أمُّ مسـلم ـ رحمها الله ـ تبيعُ ما تغزله وتعطيه زوجها لشراء ما يلزمهم ، وذات مرّةٍ أعطَتْه درهماً ليشتريَ دقيقاً ، فتصدّقَ به ، ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ أكرمَهُ لنقاءِ سريرته ، فكيف كان ذلك ؟ .

حدَّثَ عطاء الخراساني ـ رحمه الله ـ فقال :

قالتِ امرأةُ أبي مسـلم الخولاني لزوجها : يا أبا مسـلم ، ليس لنا دقيقٌ .

فقال ـ رحمه الله ـ : هل عندك شيء ؟ .

قالت : درهمٌ بِعْنا به غَزْلاً .

قال : ابغيتيه ـ أعطينيه ـ وهاتي الجِراب .

فدخل السُّوقَ ، فوقفَ على رجل يبيعُ الطَّعام ، فأتاه سائلٌ وقال : يا أبـا مسـلم تصدّقْ عليَّ ، وألحَّ السّـائلُ في طلبـه ، فأعطـاه الدّرهم ـ الوحيد ـ ثم عمد إلى الجراب فملأه نُشارة الخشب مع تُراب ، وأقبل إلى منزلِهِ ، فوضع الجِراب خلْفَ الباب ، ومضى إلى شأنه ، ففتحتْهُ فإذا به دقيقٌ حُوّارى ـ أبيض ـ فعجنت وخبزت ، فلما جاء أبو مسـلم

ليلاً ، وضعت بين يديه خواناً وأرغفةً فقال : من أين لكِ هذا يا أمّ مسلم ؟ ! . قالت له : يا أبا مسلم من الدَّقيق الذي جئتَ به نهاراً . فجعلَ يأكلُ ويبكي .

* * *

دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ :

* كانت أمّ مسلم ـ رحمها الله ـ من أبرّ الزَّوجات لزوجها ، ومن أفضلهن على القيام بالخدمةِ ، وأحسنهنّ صحبة ، ولكنَّ امرأةً من جيرانها عكَّرتْ ذلك الصَّفاء الذي كان يصلُ بينهما ؛ وأفسدت أمّ مسلم على زوجها ، وألّبتها عليه ، فدعا أبو مسلم على تلك المرأة فعميتْ ، فأتته فاعترفت وتابت ، فردَّ اللهُ إليها بصرها .

* وقد أورد أبو نعيم الأصبهاني ـ رحمه الله ـ تفاصيل هذه القصة فقال : كان أبو مسلم الخولاني إذا انصرف إلى منزله من المسجدِ كبَّر على بابِ منزله ، فتكبّر امرأته ، فإذا كان في صَحْنِ داره كبّر فتجيبه امرأته ، وإذا بلغ باب بيته كبَّر فتجيبه امرأته .

فانصرفَ ذات ليلةٍ فكبر عند باب داره فلم يجبْهُ أحدٌ ، فلما كان في الصَّحنِ كبّر فلم يجبه أحدٌ ، فلما كان عند باب بيته كبّر فلم يجبه أحد .

وكان إذا دخلَ بيته أخذتِ امرأته رداءه ونعليه ثم أتته بطعامه ، فدخل البيت ، فإذا البيتُ ليس فيه سراجٌ ، وإذا امرأته جالسة في البيت منكسة تنكتُ بعودٍ معها .

فقال لها : ما لَكِ ؟ .

قالت : أنتَ لكَ منزلة عند معاويةَ ـ بن أبي سفيان ـ وليس لنا خادم ، فلو سألته فأخْدَمَنا وأعطاكَ ، وأدركَ أبو مسلم أنَّ في الأمْر شيئاً ، فتوجَه ببصرهِ إلى السَّماء وقال : اللهم مَنْ أفسد عليَّ امرأتي فاعْمِ بصرها .

قال : ـ وقد جاءتها امرأةٌ قبل ذلك فقالت لها : زوجُكِ له منزلة عند معاوية ، فلو قلتِ له يسأل معاوية يُخدمه ويعطيه عِشْتُم ـ .

فبينا تلك المرأة جالســة في بيتها ليلاً ، إذ أنكرت بصرها فجأة ، فقالت : ما لسراجكم هل طُفِىء ؟ .

قالوا : لا ، السِّراجُ على حالِهِ .

عندئذ عرفتْ ذنبها وفضولها مع أمّ مسلم ، فأقبلتْ إلى أبي مسلم تبكي ، وتسأله أنْ يدعوَ الله عزَّ وجلَّ لها أنْ يردَّ عليها بصرها ، فرقَّ لها ورحمَ حالها ، فتوجَه إلى الله عزَّ وجلَّ بقلبه ، ودعا له فَرَدَّ عليها بصرها ، وعادت أمّ مسلم ـ رحمها الله ـ إلى حياة الصَّفاء مع زوجها أبي مسلم ـ رحمه الله ـ[1] .

* * *

مِنْ أخْبارِهَا مَعَ زَوْجِهَا :

* كان أبو مسلم الخولاني ـ رحمه الله تعالى ـ موصولَ القلبِ بالله

(١) عن الحلية (١٢٩/٢ و ١٣٠) بتصرف يسير جداً ، وانظر صفة الصفوة (١٧٨/٤ و ١٧٩) .

عزَّ وجلَّ على أساسٍ صحيحٍ ، وكان يرشد زوجه أمّ مسلم إلى هذا ، ويعلمها أنّه ما توقّف مَطْلَبٌ من مطالبِ الدنيا يطلبه الإنسان من ربّهِ إلا وفاز بقضاءِ ذلك فالله عزَّ وجلَّ يقول : ﴿ ومَنْ يتّقِ اللهَ يجعلْ له مَخْرَجاً * ويرزقْه مِن حيث لا يحتسبُ ومَن يتوكّل على الله فهو حسبه ﴾ [الطّلاق : ٢ ـ ٣] ، وأنَّ من علاماتِ الظّفر والنّجاح الرّجوع إلى الله عزَّ وجلَّ في كلِّ شيءٍ ، لا إلى الإنسان ، فالإنسانُ لا يملك شيئاً .

* ولعلَّ أمّ مسلم لم تكن تدرك كُنْهَ هذهِ الأمور إلا بعد حينٍ من الزّمن ، عندئذ تبيّنَ لها حقيقة ما كان يعلّمُها زوجها .

* وهذا ما حَدَثَ فِعْلاً ، حيث طلبتْ منه حوائج وأمرته أنْ يأتي معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ ، ولكنّه أتى المسجدَ واستعان باللهِ عزَّ وجلَّ على قضاء حوائجه ، فأكرمه اللهُ ونعّمه ، ومن ثَمّ شكر أبو مسلم ربّه على ما أولاه وأعطاه .

* وفي تاريخ دمشق أورد ابنُ عساكر ـ رحمه الله ـ قصّةَ أبي مسلم وأم مسلم ، وإرشاد أبي مسلم لزوجه فقال : قالت أم مسلم لأبي مسلم :

يا أبا مسلم ، قد حضر الشّتاءُ ، وليس لنا كسوة ، ولا طعام ولا إدام ، ولا حذاء ، ولا حطب .

فقال لها : ماذا تريدين يا أمّ مسلم ؟ .

قالت : تأتي معاوية فهو عارفٌ بك ، وتخبره بحاجتك وجهدنا .

قال : ويحكِ ، إني لأستحي أنْ أطلبَ إلى غيرِ اللهِ عزَّ وجلَّ . وألحّتْ

عليه ، فلما أكثرتْ قال : ويحكِ ! جهِّزيني .

ثم عمد إلى المسجد ، ومكثَ يومه ، فلمّا صلى النّاس العشاء وخلا له المسجد ، جثا على ركبتيه ثم قال :

اللهم أنت تعرف حالي فيما بيني وبينك ، وقد سمعتَ مقالة أمّ مسلم وقد بعثتني إلى معاويةَ ، وخزائن الدّنيا كلها بيدك ، ومعاوية خلقٌ من خلقِكَ ، وإنّما أسألك من خيرك الكثير اليسير ـ وعدَّدَ حاجاته ـ .

ثم قال : وإنّ خزائنك لا تنفدُ ، وخيرُكَ لا ينقص ، وأنتَ بي عالم ، قد تعلَم أنّك أحبَّ إليّ من سواك ، فإنْ تعطني حمدتك عليه كثيراً ، وإن تمنعنيه فلك الحمد كثيراً .

* وكان رجلٌ من آل معاويةَ في المسجد يسمع مقالة أبي مسلم ، فخرج حتى دخل على معاوية ، وأخبره بما سمع .

فقال معاوية : ويحك ، أتدري مَنْ هذا ؟ هذا أبو مسلم ، أليس قد أحصيتَ ما قال ؟ .

قال : بلى يا أمير المؤمنين .

قال : فأضْعِفوا له كلّ ما سأل وعجلوا به السّاعة إلى منزله ، ولا يصبحن إلا وهذا الشّيء في منزله من كلّ شيء اثنين .

فحمل كلّ ما قال ، فلمّا قدمت هذه الأشياء إلى أمّ مسلم ـ رحمها الله ـ ، أقبلتْ تحسِنُ الثّناء على معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ وتقول : لم أزلْ أعاتب الشّيخ في إتيانه فيأبى عليّ .

فلما صلّى أبو مسلم الغداة ـ الصّبح ـ انصرف وهو واثق بربّه عزّ وجلّ ، فلما أتى البيت أصابه مملوءاً سواداً .

فقالت له أمّ مسلم : يا أبا مسلم ، ألا ترى ما أهدى إليك أمير المؤمنين ؟ .

قال : ويح البُعَداء ! لقد كَفَرْتِ النّعمة ولم تشكري الرَّزّاق . والله ما أتيتُ لمعاوية داراً ، ولا كلّمتُ له حاجباً ، ولا رفعتُ إليه حاجة ، وما هذا إلا قسْم من الله تعالى أهداه إلينا ، فللّهِ الحمد كثيراً كثيراً[1] .

* عند ذلك أدركت أم مسلم حِرْصَ زوجها على تعليمها حقيقة التّوكل على الله سبحانه ، ومنذ ذلك الحين لم تعدْ تطلب منه شيئاً ، وحرصت على الالتزام بالنّهج الذي يسلكه زوجها أبو مسلم ـ رحمه الله ـ .

* * *

أيّ الرّجُلَيْنِ أفْضَلُ ؟ :

* ذكر صاحب كتاب « تاريخ داريا » أنّ أمّ مسلم لما مات[2] عنها أبو مسلم ـ رحمه الله ـ تزوّجت بعده عمرو بن عبد الخولاني ، وكان عمرو زاهداً عابداً ورعاً تقياً .

وسئلت أمّ مسلم ، فقيل لها : أيّ الرجلين أفضل ؟ قالت : أما أبو

---

(١) عن تاريخ دمشق (ص ٥٥٠ و ٥٥١) مختصراً .

(٢) توفي أبو مسلم في سنة (٦٢ هـ) ـ رحمه الله ـ .

مسلم ، فإنّه لم يكن يطلب من الله شيئاً إلا أعطاه إياه ؛ وأمّا عمرو بن عبد ، فإنه كان يُنار ـ يُضاء ـ عليه في محرابه حتى إني كنتُ أخدم على ضَوْءِ نوره من غير مصباح .

* هذه هي أمُّ مسلم الخولانية ـ رحمها الله ـ ، مِنْ خيرة النّساء التّابعيات اللاتي يُقتدى بمثلها ؛ فرحِمَ الله أمَّ مسلم ، ونضّر قبرها ، فقد كانت سيرتُها إمتاعاً للأسماع .

* * *